

(ورد.. في أدعية الهم والحزن)

الورد السادس

تطرق الخطوب قلب المؤمن، وتتناوب عليه المصائب والنوازل، لتُذكره أن لا ملجأ له إلا إلى الله، ولا مأوى له في فواجع الحياة إلا جناب مولاه. فإذا مسّه الضر، انطرح بين يديه جَلّ في علاه، داعيًا وسائلًا، مُفوضًا متوكِّلًا، لا يرجو إلا وجهه، ولا يلجأ إلا إليه، فهو ملاذه في الرخاء، وملجؤُه في الشدة، ومقصده في كل حاجة. لا يفتر قلبه عن ذكره، حتى تصغر في عينه عظام الشدائد، ولا يملّ لسانه من الدعاء، حتى تذلل أمامه الجبال الراسيات من ثقل ما كان يهاب. وهو في ذلك كله، متأسّ بخير الخلق ﷺ، الذي كان دأبه في كل أمر أن يلوذ بربه، ويتعوذ به من كل شر، مع أنه قد عُصم من فوق سبع سموات. فما كان ذلك إلا إظهارًا لخشيته، وتعظيمًا لربه، وتأديبًا لأقنعه، ليعلمهم أن اللجوء إلى الله هو الأصل، وأن الالتجاء إليه عند كل أمر، هو مفتاح السكينة واليقين. وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه -وكان من ألزم الناس بالنبي ﷺ- أنه قال: "كنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل، فكنت أسمعه يُكثر أن يقول: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضَلَع الدِّين وقهر الرجال" [رواه البخاري]

فأي اقتداء أبلغ من هذا؟ وأي باب أوسع من بابه سبحانه؟ من عرف الله في الرخاء، عرفه الله في الشدة، ومن اعتصم به كفاه، ومن توكل عليه أغناه، ومن أكثر من دعائه، أفرغ الله على قلبه من سكينته ما يُنسيه الهم، ويقلب كدره أنسًا.

(ورد.. في أدعية الهم والحزن)

لقد تضمن دعاء النبي ﷺ الاستعاذة بالله -وهي الالتجاء والاعتصام به- من ثمانية أشياء، كل اثنين منهما قرينان مزدوجان، فأولهما: (الهم والحزن) وهما الألم الوارد على القلب، فإن كان هذا الألم على ما مضى سمي حزنًا، وإن كان على أمرٍ مستقبل فهو الهم. وقد شُرِع للعبد الاستعاذة بالله منهما؛ لما يورثانه من ضعف القلب وشغله عن طاعة الله جل جلاله، والالتقاء عن كل خير ومصلحة.

واعلم أيها المؤمن أنه لا شيء أحب إلى الشيطان من حزنك! قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آقَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠] فلا ينبغي أن يتعلق القلب بأمر من أمور الدنيا فيكون سببًا لحزنك أو مصدرًا لهفك، كيف وقد وقر في ذلك القلب الإيمان بتقدير الله تعالى لكل الأرزاق والأمور، وإحكامه سبحانه لكل الأقضية والمقادير.

والحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، وما جلب للعبد في الدنيا خيراً، ولم يأتيه بما لم يقدر له، بل إنه ضعف رُخاً بقدر الله وسخط على أمره. وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول: "اللهم رضني بالقضاء ودّبب إليّ القدر، حتى لا أحب تقديم ما أخرت ولا تأخير ما قدّمت".

فيستعِذ المؤمن بالله تبارك وتعالى من الهم والحزن على كل أمر دنيوي، صارقاً بذلك كل همه إلى الآخرة؛ فيفكر في معاده وعرضه على ربه، وكيف ينجو من سؤاله، ويسأل تيسير حسابه، قال ﷺ: "مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهْيَ زَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ" [أخرجه الترمذي].

وكذا استعاذ نبينا ﷺ من (العجز والكسل)، فمتى ترك العبد أمراً له فيه خير ومصلحة لعدم قدرته على الإتيان به؛ كان ذلك عجزاً، ومتى تخلف عنه لعدم إرادته وقلة رغبته كان ذلك كسلًا. والعبد مندوب إلى الاستعاذة بالله تعالى من هذين الأمرين، لما يبعثان في النفس من الراحة والدعة التي تصل بها إلى فوات الطاعة ثم الندم يوم القيامة.

ثم تعوذ ﷺ بالله من (البخل والجبن) والبخل ترك الإحسان بالمال وحبس خيره ونفعه عن نفسه وغيره، والجبن ترك الإحسان بالبدن، وقد استعاذ ﷺ منهما لما يورثان من التقصير عن أداء الواجبات والقيام بحقوق الله تعالى؛ فالجبن مهانة في النفس وذلة تمنع العبد من لزوم طاعة الله، والبخل يمنع القيام بحقوق المال، ويكره صاحبه الإنفاق والجود ومكارم الأخلاق. ورابعهما: (ضلع الدين) وهو: ثقله وشدته، (وقهر الرجال) وهما قرينان تعوذ ﷺ منهما؛ ذاك أن العبد قد يقهر ويتسلط الناس عليه بحق فهذا ضلع الدين -نسأل الله العافية-، أو يقهره الناس بلا وجه حق على سبيل الظلم والعدوان فذاك غلبة الرجال. وقد استعاذ ﷺ منهما لما يوقعان من الوهن والضعف على النفس.

هذا الدعاء العظيم جامع في الاستعاذة بالله من كل شر، يظهر العبد به توحيده لله وعجزه عن صرف ذلك كله إلا بالله. فيسأل الله ملتجئاً ومعتصماً به أن يسلم من دواعي الفكر التي تقود نفسه إلى الهم والحزن، ومن دواعي الشهوة التي تقود نفسه إلى الرذائل من البخل والجبن، ومن موهنات النفس من الدين وغلبة الرجال. فاللهم تعلق قلبونا بك.. فسلمها من كل ما يضرها ويؤذيها.